الباب الثاني

في
العفة والاستعفاف

obeikandl.com

obeikandl.com

(أ) خطر فتنة النساء

لا شك في أن الأمة الإسلامية مستهدفة بالمخططات الصهيونية والصليبية، ومن أعظم أسلحتهم في تدمير أمة الإسلام سلاح المرأة.

كما قال بعض أئمة الكفر: كأس وغانية تفعلان في تحطيم الأمة المحمدية أكثر مما يفعله ألف مدفع، فأغرقوها في حب المادة والشهوات.

وساعدهم على ذلك جهل المسلمين بربهم ﷻ وبدينهم، وكذا الحكومات العِلمانية التي ابتليت بها الشعوب المسلمة، التي تحاول مقاومة الصحوة الإسلامية بتيارات من الإباحية والسفور والتبرج والفجور.

والعجيب الغريب أن الغرب الكافر يطلق إلى الفضاء الأقمار الصناعية التي تبث الإلحاد والإباحية، والمسلمون يتسابقون في شراء الأطباق التي تستقبل هذا البث المباشر، الذي يخدش الحياء، ويقتل الغيرة، ويقضي على البقية الباقية من الإسلام.

وقد أشار القرآن الكريم إلى خطر الفتنة بالمرأة، وقدَّم شهوة النساء على بقية الشهوات؛ فقال ﷻ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وبين النبي ﷺ خطر فتنة النساء قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان فقال ﷺ: «**إن الدنيا حلوة خضرةٌ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»(١).

وقال ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»(٢).

---

(١) رواه مسلم (١٧/ ٥٥) الرقاق.

(٢) رواه البخاري (٩/ ١٣٧) النكاح، ومسلم (١٧/ ٥٤) الرقاق.

وقال ﷺ: «**المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان**»(١).

ولما كانت فتنة النساء من أشد الفتن، وشهوة النساء أقوى الشهوات، كان علاج القرآن لهذه الفتنة من أبدع العلاجات، وتقويم شهوة النساء وضبطها من أحكم التدابير، فالإسلام يسد كل الذرائع ويغلق كل الأبواب التي يمكن أن يدخل منها الشر على المسلم فيقع في الفاحشة، أو يفتتن بالمرأة، فقد حرم الشرع الزنا، وسد كل الطرق الموصلة إليه.

فحرم النظر إلى الأجنبية، والخلوة بها، والدخول عليها، ومصافحتها، وألزم المرأة بالحجاب الشرعي، ومنعها من أن تخرج مُتطيبة متعطرة، ومنعها من الخضوع بالقول، فجعل بين المؤمن وبين الفاحشة أسوارًا عظيمة، وأبوابًا منيعة، فإذا التزم المسلم بشرع الله - ﷻ - ووقف عند حدوده فهو في حصن حصين، ومنزل أمين، ومهما تهاون في حدود الله ﷻ، تهاوت تلك الحصون، ودخل عليه الشر.

قال الشيخ محمد بن إسماعيل: والآن نستطيع أن نجزم بحقيقة لا مراء فيها، وهي أنك إذا وقفت على جريمة فيها نُهش العرضُ، وذبح العفافُ، وأُهْدِر الشرف، ثم فتشت عن الخيوط الأولى التي نسجت هذه الجريمة وسهلت سبيلها، فإنك حتمًا ستجد أن هناك ثغرة حصلت في الأسلاك الشائكة التي وضعتها الشريعة الإسلامية بين الرجال والنساء، ومن خلال هذه الثغرة دخل الشيطان، وصدق الله العظيم: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾(٢) [النساء: ٢٧-٢٨].

---

(١) رواه الترمذي [١١٧٣] الرضاع، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في «الإرواء» رقم [٢٧٣].

(٢) «عودة الحجاب» الجزء الثالث لمحمد بن إسماعيل (٥٩-٦٠)، وانظر الفصل الثاني من الكتاب بعنوان «احتياطات الإسلام لسد ذرائع الفتنة بالمرأة» الطبعة الرابعة.

(ب) معنى العفة والاستعفاف

قال ابن منظور: العفة: الكف عمّا لا يحل ويجمل.

عف عن المحارم والأطماع الدنية يعف عفةً وعفافًا وعفافة فهو عفيفٌ، وعفَّ أي كفَّ، وتعفف واستعفف وأعفه الله، وفي التنزيل: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ [النور :٣٣]، فسره ثعلب فقال: ليضبط نفسه بمثل الصوم فإنه وجاء.

وفي الحديث: «**ومن يستعفف يعفه الله**»(١).

الاستعفاف: طلب العفاف، وهو الكف عن الحرام والسؤال من الناس، أي: من طلب العفة وتكلفها أعطاه الله إياها.

وقيل: الاستعفاف الصبر والنزاهة عن الشيء(٢)، والعفةُ خلق إيماني رفيع زينة للرجل المسلم والمرأة المسلمة في الدنيا والآخرة، يحفظان به إيمانهما، ويضمنان به استقامتهما، ويستجلبان به رضى ربهما، ويعتصمان به من معاصيه وسخطه ويحفظان به شبابهما وصحتهما(٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن للعفة لذة أعظم من لذة قضاء الوطر، لكنها لذة يتقدمها ألم حبس النفس، ثم تعقبها اللذة، أما قضاء الوطر فبالضد من ذلك.

ولم يزل الناس يفتخرون بالعفة قديمًا وحديثًا، قال بعضهم:

إِذَا مَا هَمَمْنَا صَدَّنَا وَازِعُ التُّقى ... فَوَلَّى عَلَى أَعْقَابِهِ الهَمُّ خَاسِئَا

وقال آخر:

وإني لَمُشْتَاقٌ إِلَى كلِّ غايةٍ ... مِنَ المجْدِ يَكْبُو دُونَهَا المُتَطَاوِلُ

بَذُولٌ لِمَالي حِينَ يبخَلُ ذُو النُّهى ... عَفِيفٌ عَنِ الفَحْشَاءِ قَرْمٌ حُلاَحِلُ

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٣٩٢) الزكاة عن أبي سعيد الخدري، ومسلم [١٠٥٣] الزكاة.

(٢) «لسان العرب» (٥/ ٣٠١٥) دار المعارف.

(٣) «العفة ومنهج الاستعفاف» (باختصار) ليحيى بن سليمان العقيلي [٩٦] دار الوفاء.

Obeikandi.com

وقال نفطويه:

كَمْ قَدْ خَلَوْتُ بِمَنْ أَهْوَى فيمنعني ... مِنْهُ الحَيَاءُ وَخَوْفُ الله والحَذَرُ[(١)]

(جـ) فضل العفة والاستعفاف

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

قال الزمخشري: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ وليجتهد في العفة وظلف النفس[(٢)]، كأن المستعف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه، ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: استطاعة تزوج، ويجوز أن يراد بالنكاح ما ينكح به من المال، ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ترجية للمستعفين، وتقدمة وعد بالتفضل عليهم بالغنى، ليكون انتظار ذلك وتأميله لطفًا لهم في استعفافهم، وربطًا على قلوبهم، وليظهر بذلك أن فضله أولى بالأعفَّاء وأدنى من الصلحاء، وما أحسن ما رتب هذه الأوامر حيث أمر أولًا بما يعصم من الفتنة، ويبعد من مواقعة المعصية، وهو غض البصر، ثم بالنكاح الذي يحصن به الدين، ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام، ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء، وعزفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه[(٣)].

وقال ابن عطية: (استعفف) وزنه استفعل، ومعناه: طلب أن يكون عفيفًا، فأمر الله تعالى في هذه الآية كل من يتعذر عليه النكاح ولا يجده بأي وجه تعذر أن يستعفف، ثم لما كان أغلب الموانع على النكاح عدم المال، وَعَدَ بالإغناء من فضله، فعلى هذا التأويل يعم الأمر بالاستعفاف كل من تعذر عليه النكاح بأي وجه تعذر[(٤)].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠].

---

(١) باختصار من «روضة المحبين» (٣٤٤-٣٤٧)، والقرم: السيد المعظم، والحلاحل: السيد في عشيرته والشجاع الركين في مجلسه.

(٢) «ظلف النفس» أي: منعها.

(٣) «الكشاف» (٣/ ٢٣٧-٢٣٨) للزمخشري، ط. دار الريان للتراث.

(٤) «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» لابن عطية (١٠/ ٤٩٨) ط. قطر.

obeikandi.com

والآية الكريمة في حكم الجلباب للقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحًا فبعد أن رخص الله - ﷻ - لهن وضع الجلباب الذي يكون فوق الدرع والخمار، قال ﷻ: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

قال القاسمي: أي من وضع تلك الثياب ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ لأنه أبلغ في الحياء، وأبعد من التهمة والمظنة، ولذا يلزمهن عند المظنة ألا يضعن ذلك كما يلزم مثله في الشابة[(١)].

والعبرة كما قال العلماء بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالآية دالة على فضل الاستعفاف وهو ما يوصل إلى العفة أو يحافظ عليها، كما أتت الآيات القرآنية المباركة تحض على العفة وتدفع إلى الاستعفاف، دون التصريح بلفظ العفة والاستعفاف.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ...﴾ [النور: ٣٠-٣١]، فغض البصر استعفاف، لأن غضه وسيلة إلى حفظ الفرج والعفة، فالعين رائد القلب كما قال بعضهم:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْعَيْنَ لِلْقَلْبِ رَائِدٌ ... فَمَا تَأْلَفِ الْعَيْنَانِ فَالْقَلْبُ آلِفُ

فإطلاق البصر ذريعة إلى الوقوع في الفاحشة؛ لذا أمر الله - ﷻ - بغضّه من باب تحريم الوسائل إلى المحرم، وما حُرم سدًا للذريعة أبيح للمصلحة الراجحة، فأباح الشرع للخاطب أن ينظر إلى من أراد أن يخطبها كما قال النبي ﷺ: «**انْظُرْ إِلَيْهَا؛ فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا**»[(٢)].

وكذا إذا احتيج إلى ذلك للتطبب والشهادة، وذلك بالضوابط الشرعية، وقد نفَّر النبي ﷺ من إطلاق البصر، وسمَّى إطلاقه زنى العينين فقال ﷺ:

---

(١) «محاسن التأويل» (١٢/ ٢٣٤).

(٢) رواه الترمذي [١٠٨٧] النكاح، والنسائي (٦/ ٦٩-٧٠)، وابن ماجه [١٨٦٥] النكاح، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وصححه الألباني.

«كُتِبَ على ابن آدمَ نصيبُهُ من الزِّنا فَهُو مُدْرِكٌ ذلك لا مَحالَةَ: الْعينانِ زِنَاهُما النَّظَرُ، والأُذُنَانِ زناهُمَا الاستماعُ، واللِّسانُ زِناه الْكلامُ، والْيَدُ زِناها البَطْشُ، والرِّجْل زِناها الخُطَا، والْقَلْبُ يَهوَى ويَتمنَّى، ويُصَدِّقُ ذلك الْفَرْجُ أو يُكَذِّبُهُ»(١).

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فقال: «**اصرف بصرك**»(٢).

قال النووي: ومعنى نظر الفجأة أن يقع بصره على الأجنبية من غير قصد فلا إثم عليه في أول ذلك، ويجب عليه أن يصرف بصره في الحال فلا إثم عليه، وإن استدام النظر أثم لهذا الحديث، فإن رسول الله ﷺ أمره بصرف بصره، مع قوله تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ...**﴾ [النور: ٣٠](٣).

وقد ذكر العلماء لغض البصر فوائد:

- منها أنه امتثال لأمر الله تبارك وتعالى، وما سعد من سعد إلا بامتثال أوامره، وما شقي من شقي إلا بتضييع أوامره.

- ومنها أنه يورث القلب أُنْسًا بالله عز وجل، وجمعية عليه، وإطلاقه يشتت القلب ويبعده عن الله عز وجل.

- ومنها أنه يقوي القلب ويفرحه، وإطلاقه يضعف القلب ويحزنه.

- ومنها أنه يكسب القلب نورًا وإشراقًا، وإذا استنار القلب أقبلت عليه وفود الخيرات من كل جانب، ولذا ذكر الله - عز وجل - بعد قوله: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ...**﴾ [النور: ٣٠]، ﴿**ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ**﴾ [النور: ٣٥]، أي: مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره واجتنب نواهيه.

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٢٦) الاستئذان، ومسلم (١٦/ ٢٠٥-٢٠٦) القدر، وأبو داود (٢١٣٩) النكاح، وأحمد (٢/ ٢٧٦).

(٢) رواه مسلم (١٤/ ١٣٩) الأدب، والترمذي (١٠/ ٢٢٩ عارضة) الأدب، والدارمي (٢/ ٢٧٨) الاستئذان، وأحمد (٤/ ٣٥٨- ٣٦١).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم هامش (١٤/ ١٣٩).

– ومنها أنه يفتح للعبد باب العلم، ويسهل عليه أسبابه، فإذا استنار القلب ظهرت فيه حقائق الأشياء وطبعت صور المعلومات.

– ومنها أنه يسد على الشيطان مدخله إلى القلب، وإطلاق البصر يسمح بدخول الشيطان إلى القلب فيزين صورة المنظور إليه، ويجعله صنماً يعكف عليه القلب، ويلقي على القلب حطب المعاصي، ويوقد نار الشهوة.

– ومنها أنه يفرغ القلب للتفكر والعبادة، وإطلاقه يوقع في الغفلة واتباع الهوى، وقد قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

– ومنها أن الناظر يرمي بسهام غرضها قلبه كما قال بعضهم:

يَارَامِيًا بِسهام اللَّحْظِ مُجْتَهِدًا ... أَنْتَ القَتيلُ بِمَا تَرْمِي فَلاَ تُصِبِ
وباعث الطَّرْفِ يَرتادُ الشِّفاء لَه ... طَوِّقْهُ إِنَّهُ يأْتِيكَ بِالعَطَبِ

– ومنها أن من خالف أمر الله عَزَّوَجَلَّ، وأطلق بصره أورثه ذلك الحسرات والزفرات كما قال بعضهم:

وَكُنْتَ متى أَطْلَقْتَ طَرْفَك رائدًا ... لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ
رَأَيْتَ الذي لا كُلُّهُ أَنْتَ قَادرُ ... عَلَيْهِ ولا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

– ومنها أن غض البصر يسبب إطلاق نور البصيرة، ويورث العبد الفراسة كما قال **شاه ابن شجاع الكرماني**: «من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، واعتاد الحلال لا تخطئ فراسته»، وكان شاه هذا لا تخطئ له فراسة.

– ومنها أن غض البصر أمان من الوقوع في أسر الشهوة، ومتى أسرت الشهوة والهوى القلب تمكن منه عدوه، وسامه سوء العذاب، وصار:

كَعُصْفورةٍ في كَفِّ طِفْلٍ يَسُومهَا حِيَا ... ضَ الرَّدى والطِّفْل يَلْهُو وَيلْعبُ

- ومنها أن غض البصر أمان من الوقوع في سكرة العشق، فالنظرة كأس من خمر، والعشق هو سكر ذلك الخمر، وسكران العشق قلّما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات نادمًا بين الخاسرين.

والعشق داء بلا عوض كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

وَمَا في الأَرضِ أَشْقَى مِنْ مُحِب ... وإن وجَدَ الهوى حُلْوَ المَذاقِ
تَراهُ بَاكِيًا في كُلِّ حَالٍ ... مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أو لاشتياقِ
فيبكِي إنَ نأوْا شوقًا إلَيْهِمْ ... ويَبْكِي إن دَنَوْا حَذَرَ الفُرَاقِ
فَتسخنُ عَيْنُهُ عند التَّلاقي ... وتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ الفُرَاقِ

ومن الآيات التي تحض على العفة وتمد أهلها قوله تعالى في سورة المؤمنون:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-٧].

وكذا قوله - عز وجل - في سورة المعارج: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المعارج: ٢٩-٣٠].

وكذا الآيات الكريمات التي تحض على الحجاب؛ فإنها تحض على العفة والعفاف والطهارة، وزكاة النفس وزكاة المجتمع، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١].

وكذا الآيات التي تحض على الزواج كقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، فإن الزواج كما قال ﷺ: «**أغض للبصر وأحصن للفرج**»(١).

والشرع كله طهارة وعفة وصيانة للقلب والجوارح، ومن سلم نفسه للشرع المتين تولى الشرع تطهيره وتنظيفه وحمايته ورعايته، فليس على المسلم إلا أن يكون بين يدي الشارع كالميت بين يدي الغاسل، فالإسلام يحرم على المسلم النظر المحرم، والخلوة بالأجنبية، ومصافحتها، والدخول عليها، والسفر بها، بل يحرم على المرأة أن تصف أختها المسلمة لزوجها فيصير كأنه يعاينها خشية أن يتعلق بها قلبه.

فبين المسلم الملتزم بشرع الله - عز وجل - وبين الفاحشة أبواب كثيرة، حتى يكون المسلم بعيدًا عن معصية الله عز وجل، فهو لا يبتعد عن الفاحشة الكبرى وحدها، ولكنه يبتعد عن كل سبب يُقرب إلى الفاحشة، أو يجعل المؤمن عرضة للوقوع في الكبائر التي توجب سخط الله عز وجل وعقوبته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

فالنظرة محرمة، ومصافحة الأجنبية والخلوة بها، والسفر معها كل ذلك يقرب إلى الزنا، ولم يقل عز وجل: لا تزنوا ولكن قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾(٢)، فحرم الله عز وجل الزنا،

---

(١) رواه البخاري (٩/ ٨) النكاح، ومسلم (٩/ ٢٤٥-٢٤٦) النكاح.

(٢) ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» في باب عفاف المحبين مع أحبائهم أمثلة من هذا العفاف، وكلها أو جلها فيه التنزه عن الفاحشة الكبرى وهي الزنا، وليس فيها التنزه عن النظر المحرم والخلوة المحرمة كما نقل قول كثير عزة:

وَمَا نِلتُ مِنهَا مُحرَّمًا غَيرَ أَنَّني ... أُقَبِّلُ بَسَّامًا مِنَ الثَغرِ أَفْلَجَا
وأَلثِمُ فاهَا تارةً ثم تارةً ... وأَترُكُ حاجاتِ النفوسِ تحرُّجًا

ولا شك أن هذا منكر من القول، وكأن الله عز وجل ما حرم إلا الزنا، فأين تحريم الخلوة، والنظرة، فضلًا عن التقبيل وغيره؟! غفر الله لشيخ الإسلام ابن القيم، وهو المعروف بالعبادة والورع، ونحسبه من المتقين، فشيخ الإسلام حبيب إلى قلوبنا ولكن الحق أحب إلينا منه، كما علمنا الإمام ابن القيم رحمه الله فكان عليه رحمه الله أن ينزه كتابه عن هذه الترهات، وإذا ذكرها فللتحذير منها، والله الموفق.

وسدَّ الذرائع الموصلة إليه بتحريم النظر، والخلوة، والسفر بالأجنبية، كما حرم على المرأة التبرج ومخالطة الرجال والخروج متطيبة والخضوع بالقول.

أما أدلة السنة على فضل العفة والاستعفاف:

- فمن ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ الله، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ ،وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِمَالُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»(١).

فمن هؤلاء السبعة الذين يسعدون بظل عرش الرحمن يوم القيامة، والناس في حر الموقف، وقد اقتربت الشمس من رؤوس العباد فكانت على قدر ميل أو ميلين: «**رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله**».

وقال النووي: وخص ذات المنصب والجمال لكثرة الرغبة فيها وعسر حصولها، وهي جامعة للمنصب والجمال، لاسيما وهي داعية إلى نفسها طالبة لذلك، قد أغنت عن مشاق التوصل إلى مراودة ونحوها، فالصبر عنها لخوف الله تعالى، وقد دعت إلى نفسها مع جمعها المنصب والجمال من أكمل المناصب وأعظم الطاعات، فرتب الله تعالى عليه أن يظله في ظله، وذات المنصب هي ذات الحسب والنسب الشريف، ومعنى «دعته» أي: دعته إلى الزنا بها، وهذا هو الصواب في معناه، وذكر القاضي فيه احتمالين أصحهما هذا، والثاني أنها دعته لنكاحها، فخاف العجز عن القيام بحقها، وأن الخوف من الله تعالى شغله عن لذات الدنيا وشهواتها(٢).

وعن أبي سعيد الخدري أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى إذا نفذ ما عنده قال: «**مَا يَكُنْ**

(١) رواه البخاري (٢/ ١٦٨) الأذان، ومسلم رقم [١٠٣١] الزكاة.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ١٧١).

عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ الله، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ»(١).

وقال النووي: وفي هذا الحديث الحث على التعفف والقناعة، والصبر على ضيق العيش وغيره من مكاره الدنيا(٢).

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فمن طلب العفة وحرص عليها، وأخذ بالأسباب الموصلة إليها فإن الله - ﷻ - يرزقه العفة ويسهل له أسبابها، وقد قال النبي ﷺ: «**ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه**»(٣).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ الْغَارَ فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا الله بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ فَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ منه».

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي، حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنْ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنْ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ

(١) رواه البخاري (٣/ ٣٩٢) الزكاة، ومسلم [١٠٥٣] الزكاة.
(٢) هامش صحيح مسلم بشرح النووي (٧/ ٢٠٥).
(٣) رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ١٢٧)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم [٣٤٢].

أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلك ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا».

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ الله! أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنْ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ الله! لَا تَسْتَهْزِئُ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا. اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ»(١).

قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: وتوسل الثاني بعفته من الزنا بابنة عمه التي أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء بعدما قدر عليها، واستسلمت له مكرهة بسبب الجوع والحاجة، ولكنها ذكَّرته بالله - عَزَّ وَجَلَّ - فتذكر قلبه، وخشعت جوارحه، وتركها والمال الذي أعطاها(٢).

وشبيه بهذه القصة قصة الكفل التي رواها الترمذي في جامعه:

عن ابن عمر قال: سمعت النبي ﷺ يحدث حديثًا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين - حتى عدَّ سبع مرات - ولكني سمعته أكثر من ذلك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كَانَ الْكِفْلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَتَوَرَّعُ عَنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِينَارًا عَلَى أَنْ يَطَأَهَا، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنْ امْرَأَتِهِ أَرْعَدَتْ وَبَكَتْ فَقَالَ: مَا يُبْكِيكِ أَأَكْرَهْتُكِ؟ قَالَتْ: لَا وَلَكِنَّهُ عَمَلٌ مَا عَمِلْتُهُ قَطُّ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَيْهِ إِلَّا الْحَاجَةُ، فَقَالَ: تَفْعَلِينَ أَنْتِ هَذَا وَمَا فَعَلْتِهِ! اذْهَبِي فَهِيَ لَكِ، وَقَالَ: لَا وَالله لَا أَعْصِي الله بَعْدَهَا أَبَدًا فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَأَصْبَحَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِهِ: إِنَّ الله قَدْ غَفَرَ لِلْكِفْلِ**»(٣).

(١) رواه البخاري (٤/ ٥٢٥-٥٢٦) الإجارة.

وقوله: «لا أغبق» هو من الغبوق؛ وهو شرب العشي.

(٢) التوسل أنواعه وأحكامه [٣٥] ط. دار العلم ببنها.

(٣) رواه الترمذي [٢٦٢٧] القيامة، وقال: هذا حديث حسن، وقد رواه شيبان وغير واحد عن

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح الذي يريد العفاف، والمكاتب الذي يريد الأداء** - أي: العبد الذي يريد أن يحرر رقبته ببذل مقدار من المال يكاتب عليه سيده - **والغازي في سبيل الله**»(١).

قال الأستاذ حسين سليم أسد: لقد ذكر رسول الله ﷺ ما يحتاج إليه المؤمن من العفة: من عفة الفرج، وتخليص الرقبة، وبراءة الذمة، وإعلاء كلمة الله، وأخبر أن هذه الواجبات لا تتم إلا بالمال، ولذا قال سعيد بن المسيب: «لا خير فيمن لا يحب المال، يعبد به ربه، يؤدي به أمانته، ويصون به نفسه، ويستغني به عن الخلق».

وقبل كل هذا وبعده لابد من عون الله تعالى ذي الإرادة التي لا ترد والقدرة التي لا تحد، ورحم الله من قال:

إِذَا لَمْ يَكُن عونٌ من الله للفتى ... فأول ما يَجْني عَليه اجتهاده(٢)

وقال ﷺ: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ وَمَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ**»(٣).

وعن أبي أمامة أن فتى من الأنصار أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه! فقال: «**ادنه**» فدنا منه قريبًا قال: فجلس، قال: «**أتحبه لأمك؟**» قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: «**أفتحبه لابنتك؟**» قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لبناتهم**»، قال: «**أفتحبه لأختك؟**» قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**» قال: «**أفتحبه لعمتك؟**» قال: لا والله جعلني الله فداك، قال:

=الأعمش نحو هذا، ورفعوه، ورواه بعضهم عن الأعمش ولم يرفعه، ورواه الحاكم (٤/ ٢٥٤-٢٥٥) وصححه ووافقه الذهبي، لكن ضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي رقم» [٤٤٨].

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٥١، ٤٣٧)، والنسائي (٦/ ٦١) النكاح، والترمذي [١٦٥٥] فضائل الجهاد، وابن ماجه [٢٥١٨] العتق، وحسنه الألباني في غاية المرام رقم [٢١٠].

(٢) هامش مسند أبي يعلي الموصلي (١١/ ٤١١) ط. دار الثقافة العربية.

(٣) رواه البخاري (١١/ ٣٠٨) الرقاق، والترمذي (٩/ ٢٤٨ عارضة) الزهد.

«**ولا الناس يحبونه لعماتهم**» قال: «**أفتحبه لخالتك؟**» قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**»، قال: فوضع يده عليه وقال: «**اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه**»، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

(د) الدوافع إلى العفة والاستعفاف

لاشك في أن كل مسلم يجب أن يتحلى بالفضائل، ويتخلى عن القصور والرذائل، فالمؤمن إذا رُغّب في الخير رغب، وإذا خوف من الشر هرب، ولا خير فيمن إذا زجر لا ينزجر وإذا أُمر لا يأتمر.

فما هي الدوافع التي تدفع إلى العفة والاستعفاف؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذه الطائفة لعفتهم أسباب أقواها:

- إجلال الجبار، ثم الرغبة في الحور الحسان في دار القرار، فإن من صرف استمتاعه في هذه الدار إلى ما حرم الله عليه منعه من الاستمتاع بالحور الحسان هناك، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يلبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة...**»[(١)]، فلا يجمع الله للعبد لذة شرب الخمر ولبس الحرير والتمتع بما حرم الله عليه من النساء والصبيان ولذة التمتع بذلك في الآخرة، فليختر العبد لنفسه إحدى اللذتين، وليطب نفسًا عن إحداهما بالأخرى فلن يجعل الله من أذهب طيباته في حياته الدنيا واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره من الدنيا إذا لقي الله.

ودون ذلك مرتبة أن يتركها لمجرد خوف العقوبة.

ثم أدنى من ذلك أن يحمله عليها خوف العار والشنار[(٢)].

- ومنهم من يحمله على العفة الإبقاء على محبته خشية ذهابها بالوصال.
- ومنهم من يحمله عليها عفة محبوبه ونزاهته.
- ومنهم من يحمله عليها الحياء منه والاحتشام له وعظمته في صدره.

(١) رواه البخاري (١٠/ ٢٩٦) اللباس، ومسلم [٢٠٧٣] اللباس، والنسائي (٨/ ٢٠١) الزينة.
(٢) الشنار: أقبح العيب والعار.

obeikandl.com

- ومنهم من يحمله عليها الرغبة في جميل الذكر، وحسن الأحدوثة.

- ومنهم من يحمله عليها الإبقاء على جاهه ومروءته وقدره عند محبوبه وعند الناس.

- ومنهم من يحمله عليها كرم طبعه وشرف نفسه وعلو همته.

- ومنهم من يحمله عليها لذة الظفر بالعفة، فإن للعفة لذة أعظم من لذة قضاء الوطر، لكنها لذة يتقدمها ألم حبس النفس، ثم تعقبها اللذة، وأما قضاء الوطر فالبضد من ذلك.

- ومنهم من يحمله عليها علمه بما تعقبه اللذة المحرمة من المضار والمفاسد، وجمع الفجور خلال الشر كلها[(١)].

- ومما يدفع إلى العفة والاستعفاف معرفة ما في خلاف العفة من الخنا والفجور والفواحش من الشرور والآثام والآلام.

ففي حديث سمرة بن جندب أن النبي ﷺ قال: «**رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني فانطلقت معهما فإذا ببيت مبني على مثل بناء التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوقد تحته نار فيه رجال ونساء عراة فإذا أوقدت النار ارتفعت حتى كادوا أن يخرجوا فإذا أخمدت رجعوا فيها، فقلت: من هؤلاء؟ قال: هم الزناة**»[(٢)].

ولما كانت معصية هؤلاء بأجزائهم السفلى كانت النار تأتيهم من أسفل منهم، ولما كانت نيران الشهوات تثور عليهم في الدنيا بين حين وآخر فيقارفون المعصية كانت النار تثور عليهم بين حين وآخر، وكانوا كلما أرادوا الخروج من المعصية والتوبة إلى الله ﷻ والانطلاق في فضاء الطاعة قصرت بهم هممهم، وغلبت عليهم شهواتهم فعادوا إليها مرة ثانية، فهم كذلك في تنور في البرزخ كلما هموا بالخروج عادوا إليه مرة ثانية.

ولو تابوا من المعصية وأنابوا إلى الله لخرجوا من التنور، أو لما دخلوه أصلًا، كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن:

---

(١) «روضة المحبين» (٣٤٣-٣٤٤) مطبوعات دار الصفا.

(٢) رواه البخاري (٣/ ٢٥١-٢٥٢) الجنائز، وكذا في التعبير (١٢/ ٤٣٨-٤٣٩).

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزني بحليلة جارك**»(١)، فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ القِيَامَة، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ**»(٢).

قال القاضي عياض: سببه أن كل واحدٍ منهم التزم المعصية المذكورة مع بعدها منه وعدم ضرورته إليها، وضعف دواعيها عنده، وإن كان لا يعذر أحد بذنب، لكن لما لم يكن لهذه المعاصي ضرورة مزعجة ولا دواعي معتادة، أشبه إقدامهم عليها المعاندة والاستخفاف بحق الله تعالى، وقصد معصيته لا لحاجة غيرها، فإن الشيخ لكمال عقله، وتمام معرفته بطول ما مر عليه من الزمان، وضعف أسباب الجماع والشهوة للنساء، واختلال دواعيه لذلك، وعنده ما يريحه من دواعي الحلال في هذا ويخلي سره منه، فكيف بالزنا الحرام، وإنما دواعي ذلك الشباب والحرارة الغريزية، وقلة المعرفة وغلبة الشهوة، لضعف العقل، وصغر السن(٣).

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٤٩٢) التفسير، ومسلم (٢/ ٨٠) الإيمان.

(٢) رواه مسلم (٢/ ١١٥) الإيمان.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم هامش (٢/ ١١٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ويكفي في قبح الزنا أن الله - سبحانه وتعالى - مع كمال رحمته شرع فيه أفحش القتلات وأصعبها وأفضحها، وأمر أن يشهد عباده المؤمنون تعذيب فاعله، ومن قبحه أن الله سبحانه فطر عليه بعض الحيوان البهيم الذي لا عقل له كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: رأيت في الجاهلية قردًا زنى بقردة فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا، وكنت فيمن رجمهما(١).

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ ما ملخصه: والزنا يجمع خلال الشر كلها، من قلة الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغيرة، فلا تجد زانيًا معه ورع ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة على صديق، ولا غيرة تامة على أهله، ومن موجباته غضب الرب بإفساد حرمه وعياله.

ومنها سواد الوجه، وظلمته، وما يعلوه من الكآبة والمقت، الذي يبدو عليه للناظرين، ومنها ظلمة الوجه وطمس نوره.

ومنها الفقر اللازم.

ومنها أنه يذهب حُرمة فاعله، ويسقطه من عين ربه، ومن أعين عباده.

ومنها أنه يسلبه أحسن الأسماء، وهو اسم العفة والبر والعدالة، ويعطيه أضدادها كاسم الفاجر، والفاسق والزاني، والخائن.

ومنها أنه يسلبه اسم المؤمن كما في الصحيحين عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لاَ يَزْنِي الزاني حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»(٢).

ومنها أنه يعرض نفسه لسكنى التنور الذي رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه الزناة والزواني(٣).

---

(١) «روضة المحبين» [٣٥٩]، والحديث رواه البخاري (٧/ ١٨٢) مناقب الأنصار.

(٢) رواه البخاري (١٠/ ٣٠) الأشربة، ومسلم (٢/ ٤١-٤٢) الإيمان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والترمذي [٢٦٢٥] الإيمان.

(٣) أي: حديث سمرة الذي تقدم تخريجه، وهو في صحيح البخاري.

ومنها أنه يفارقه الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف ويستبدل به الخبيث الذي وصف الله به الزناة كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النور: ٢٦].

وقد حرم الله الجنة على كل خبيث، بل جعلها مأوى الطيبين، ولا يدخلها إلا طيب.

ومنها الوحشة التي يجعلها الله ﷻ في قلب الزاني، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهه، فالعفيف على وجهه حلاوة، وفي قلبه أُنس، ومن جالسه استأنس به، والزاني تعلو وجهه الوحشة، ومن جالسه استوحش به.

ومنها قلة الهيبة التي تنزع من صدور أهله وأصحابه وغيرهم، وهو أحقر شيء في نفوسهم وعيونهم، بخلاف العفيف فإنه يرزق الحلاوة والمهابة.

ومنها أن الناس ينظرونه بعين الخيانة، ولا يأمنه أحدٌ على حرمته ولا على ولده.

ومنها الرائحة التي تفوح عليه، يشمها كل ذي قلب سليم.

ومنها ضيقة الصدر وحرجه؛ فإن الزناة يعاملون بضد قصودهم، فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، ولم يجعل الله معصيته سببًا إلى خير قط، ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذة والسرور، وانشراح الصدر، وطيب العيش، لرأى أن الذي فاته من اللذة أضعاف ما حصل له، مع ربح العاقبة والفوز بثواب الله وكرامته.

ومنها أنه يعرض نفسه لفوات الاستمتاع بالحور العين في المساكن الطيبة في جنات عدن.

ومنها أن الزنا يجرؤه على قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وكسب الحرام، وظلم الخلق، وإضاعة أهله وعياله، وربما قادة قسرًا إلى سفك الدم الحرام، وربما استعان عليه بالسحر وأشرك وهو يدري أو لا يدري، فهذه المعصية لا تتم إلا بأنواع من المعاصي قبلها،

openkandil.com

ومعها، ويتولد عنها أنواع أُخر من المعاصي بعدها، فهي محفوفة بجند من المعاصي قبلها وجند بعدها وهي أجلب شيء لشر الدنيا والآخرة، وأمنع شيء لخير الدنيا والآخرة، وإذا علقت بالعبد فوقع في حبائلها وأشراكها عز على الناصحين استنقاذه وأعيا الأطباء دواؤه، فأسيرها لا يُفْدَى، وقتيلها لا يودى[(١)]، وقد وكَّلها الله سبحانه بزوال النعم، فإذا ابتلي بها عبدٌ فليودع نعم الله، فإنها ضيف سريع الانتقال، وشيك الزوال، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ﴾ [الرعد: ١١][(٢)].

(هـ) ثمرات العفة والاستعفاف

لاشك في أن لكل خلق فاضل ثمرات وفواضل، وهذه الثمرات ليست قاصرة على ثواب الآخرة، فإن الله ﷻ قد شرع لنا الشرائع من أجل أن نسعد في الدنيا والآخرة، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]، فتكفل الله - ﷻ - لمن اتبع هداه بالهداية والرشاد، والبعد عن الضنك والشقاء.

كما وعد الله ﷻ من آمن به وعمل صالحًا بالحياة الطيبة في الدنيا بالإضافة إلى ثواب الآخرة ونعيمها، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

ولا سعادة في الالتزام بشرع الله إلا لمن هداه الله وشرح صدره بالإسلام ودخل في جميع شرائعه، واهتدى بجملة طرائقه، أما من يتبع بعض الشرع ويعرض عن البعض

---

(١) أي: ليس له دية.

(٢) باختصار من «روضة المحبين» (٣٦٠-٣٦٣).

الآخر، فإذا لم يجد سعادة الإيمان، وحلاوة الالتزام فلا يلومن إلا نفسه، فقد قال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولا**»(١).

كثير ممن بخس حظه من العلم والدين، يظن أن الحياة هي الانسلاخ من الملل، واتباع هوى النفس والشيطان، وهؤلاء معذورون بجهلهم وغباوتهم، لأنهم ما وجدوا حلاوة الإيمان، ولا استطعموا طعمه، ما ذاقوا حلاوة القيام والصيام وتلاوة القرآن ولقاء الإخوان، فما عرفوا من اللذات إلا الشهوات الدَّنِيَّة واللذات الدنيوية، فكيف تصف لهم حلاوة العفة والاستعفاف؟! إنها تذاق بالقلوب لا تشاهد بالأبصار، وتدرك بالحواس، ويكفي المؤمن معرفة بثمرات الطاعات والعبادات أن الله - ﷻ - لا يشرع لنا إلا ما فيه خير وصلاح في الدنيا والآخرة، فالله ﷻ لا يستفيد شيئًا من طاعات العباد، ولا يتضرر بشيء من معاصيهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ ﴾ [الحج: ٣٧].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]

فالعباد أنفسهم ينتفعون بطاعتهم، وهم أنفسهم يتضررون بمعاصيهم، فمن حيث الجملة كل عباده، وكل خلق إسلامي له ثمرة بل ثمرات في الدنيا والآخرة.

فما ثمرات العفة والاستعفاف؟

١- النجاة من عقوبات المعاصي في الدنيا والبرزخ، فللمعاصي عقوبات دنيوية كالوحشة في القلب، وحرمان نور العلم، وحرمان الرزق، وذهاب الغيرة والحياء،

(١) رواه مسلم (٢/ ٣) الإيمان، والترمذي رقم [٢٦٢٣] الإيمان.
قال القاضي عياض: معنى الحديث: صح إيمانه، واطمأنت به نفسه، وخامر باطنه لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته، ومخالطة بشاشته قلبه لأن من رضي أمرًا سهل عليه، فكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعات الله تعالى ولذت له والله أعلم، شرح النووي على صحيح مسلم هامش (٢/ ٣-٤).

obeikandl.com

والذل، وضيق الصدر، وظلمة القبر، وحرمان الطاعة، ونسيان العبد لنفسه، والتعرض للعنة الله ﷻ، ولعنة رسول الله ﷺ، وزوال الأمن والأمان، وظهور الأوجاع والطواعين، ومحق البركة، والعقوبات الشرعية، وغير ذلك، وقد مضى كيف يعذب الزناة والزواني في التنور وتأتيهم النار من أسفل منهم في القبور، أما عقوبة الآخرة فقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩](١).

٢- الفوز بثمرات التقوى العاجلة والآجلة، فلاشك في أن العفة من تقوى الله ﷻ، وقد وعد الله - ﷻ - المتقين بثمرات طيبة.

- **فمن الثمرات العاجلة**: المخرج من كل ضيق، والرزق من حيث لا يحتسب، والسهولة واليسر في كل أمر، وتيسر تعلم العلم النافع، وإطلاق نور البصيرة، ومحبة الله ﷻ، ومحبة ملائكته، والقبول في الأرض، ونصرة الله ﷻ وتأييده وتسديده، والبركات من السماء والأرض، والبشرى وهي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو تُرى له، والحفظ من كيد الأعداء ومكرهم، وحفظ الذرية الضعاف بعناية الله ﷻ، وقبول الأعمال، والنجاة من عذاب الدنيا، وما يجعله الله ﷻ لهم من الهيبة والشرف والمعرفة.

- **أما الثمرات الآجلة**: فمن ذلك تكفير السيئات، وعِزُّ الفوقية فوق الخلق يوم القيامة، وميراث الجنة، والفوز بأعلى الدرجات، والسعادة بالصحبة والمحبة مع أحبائهم في الله وهم يساقون إلى الجنة زُمَرًا(٢).

٣- ومن ثمرات العفة: طهارة الفرد، ونقاء المجتمع، فالعفيف يحيا حياةً اجتماعية مستقرة، يتمتع بالسمعة الطيبة والذكر الحسن، والزواج السعيد، ويهنأ بنفسيةٍ مستقرة مطمئنة بأنس الطاعة، وبهجة القرب من الله، ولذة العبادة، وحلاوة الإيمان، يَسْعد

(١) انظر كتاب «الجواب الكافي» لابن القيم، و«تحذير الداني والقاصي من عقوبات الذنوب والمعاصي» للمصنف.

(٢) انظر هذه الثمرات بأدلتها في كتاب «التقوى الغاية المنشودة والدرة المفقودة» للمصنف (٧٦-١٠٦) ط. دار الإيمان.

ويُسعد مجتمعه بأخلاقه الفاضلة، بحيائه وعفافه، وحشمته، وتقواه، وستره، وصبره، فقل لي بربك ألا يسعد المجتمع بأمثال هؤلاء!

أم أن سعادة المجتمع في ذاك الذي استمرأ العيش في الظلام، وأكل اللحم الحرام، لا يرعى الحرمات، ولا همَّ له إلا إشباع الشهوات(١).

٤- ومن ثمرات العفة: النجاة من الإصابة بالأمراض الخبيثة، التي تلاحق أصحاب الشهوات والنزوات، كالإيدز، والزهري، والسيلان، نعوذ بالله من الخذلان.

٥- ومن ثمرات العفة: التدرب على مخالفة الهوى، والله ﷻ لم يجعل للجنة طريقًا إلا في مخالفة الهوى فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

وقد حُفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات، فمهما وجد المؤمن من الإيذاء، والاستهزاء، والتكذيب، والتعذيب، وخلاف هوى النفوس فليبشر، إنها علامات طريق الجنات، ومهما رأى ما يوافق هوى النفوس، ومقتضى الشهوات، فليحذر وليراجع نفسه، فالنار النار، نعوذ بالله من غضب العزيز الغفار.

٦- ومن ثمرات العفة: التدرب على قوة الإرادة والعزيمة على فعل الطاعات وترك المعاصي، فمن استطاع مخالفة هوى نفسه، تقوى إرادته في سائر الطاعات، وكذا يقوى على قهر نفسه وكفها عن سائر المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

أما من اتبع هوى نفسه، وخالف مقتضى العفة والاستعفاف فإنه تقوى عليه نفسه في سائر الميادين؛ فلا تراه يصمد أمام عدو، أو يصبر إذا تعرض لبلاء، أو يصمد إذا تعرض لفتنة النساء.

٧- ومن ثمرات العفة: أن يطمئن المؤمن على إيمانه وإخلاصه لله ﷻ، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

(١) بتصرف واختصار من «العفة ومنهج الاستعفاف» (٩٨-٩٩).

وروي عن عبد الله بن عمر قال: صِدْق الإيمان أن يخلو الرجل بالمرأة الحسناء فيدعها لا يدعها إلا لله، وقوله: «يخلو» لا يقصد به أنه يتعمد الخلوة بها، ولكن المقصود إذا خلا بها في ظرف من الظروف، والله أعلم.

٨- ومن ثمرات العفة: أنها برهان على الصبر، بل هي من الصبر، فالصبر ثلاثة أنواع: صبر على الطاعات حتى يؤديها، وصبر على المعاصي حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار حتى لا يتسخطها، وقد قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**»(١).

٩- ومن ثمرات العفة: أن يصون العبد عرضه، من حافظ على أعراض الناس حَفِظ الله عرضه، ومن عبث بأعراض الناس عبث الناس بعرضه، والجزاء من جنس العمل، وقد قيل: من كان يحرص على عرضه فليحرص على أعراض الناس، وكل دَين لابد له من وفاء، ودين الأعراض وفاؤه بالأعراض، والمرء يهتك عرضه حين يهتك أعراض الناس(٢).

١٠- ومن ثمرات العفة: الوصول إلى الزواج المثالي؛ فإن الشاب الذي أرخى العنان لشهواته، وتعود على تدنيس الأعراض، وإشباع رغباته بألوان متعددة من المفاسد لن يطيق صبرًا عنها وإن تزوج، إلا أن يتوب، ويبدأ بزواجه صفحة جديدة من حياته، وكذلك الفتاة التي خرجت من حصنها العفيف وخالطت الرجال وعاشرتهم من الصعب بعد ذلك أن تخضع لزوج تهب له كل حياتها، إلا بعد توبة نصوح، أما أهل العفاف من الرجال والنساء فإن المودة والرحمة والسكن تتبادل بين الزوجين ويرى كل منهما في الآخر الحب المخلص، والمنحة الأبدية، وعنوان الرخاء، فيتعلق كل منهما بالآخر حتى النهاية.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) بتصرف من «العفة ومنهج الاستعفاف» [١٠١].

وقد ذكر صاحب كتاب «المعرفة الجنسية» حقيقة طول فترة السعادة الزوجية لذوي العفة من الرجال فيقول: «لقد عرفت بحكم معرفتي شيوخًا ناهزوا الخامسة والسبعين، لم يعتدِ قابليتهم الجنسية وهنٌ، ولما سألتهم عن سر هذه الحيوية العجيبة ردوا بأن احتفاظهم بنشاطهم يرجع إلى العوامل التالية:

- لم يدعوا العادة السرية تتملكهم وهم فتيان.
- عندما بلغوا مبلغ الرجال صانوا أنفسهم فما تعرضوا في حمأة الرذائل.
- بعد الزواج لزموا حد الاعتدال، فما أفرطوا في قواهم، ولا اختزنوها مدة طويلة.
- لم يستعملوا المخدرات ولا الكحول ولا الدخان.
- ما لجأوا قط إلى المقبلات الصناعية، وما قربوا نساءهم إلا وهم في صحة جيدة[(١)].

١١- ومن ثمرات العفة: أن يجعل الله للعبد الذي خالف هواه وأطاع مولاه من الضيق مخرجًا، كما في قصة الثلاثة الذين انسدت عليهم فوهة الغار، فتوسل أحدهم بعفته فانفرجت الصخرة.

١٢- ومن ثمرات العفة: أن يستظل العبد العفيف بظل عرش الرحمن يوم القيامة كما في قوله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله...**»[(٢)]، الحديث.

فمن استظل بتقوى الله ومخافته في الدنيا، استظل بظل عرشه يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة، نسأل الله السلامة.

(و) مواقف إيمانية في العفة والاستعفاف

هذه المواقف الإيمانية ثمرة من ثمرات الإيمان الصادق، الدافع إليها قوة الإيمان ومحبة الرحمن ﷻ، إنها مواقف شريفة كريمة عظيمة، تُؤثر عن الأنبياء، والأولياء والعلماء، ويرتفع بها أهل الإيمان في الدنيا والآخرة، مواقف يرفع المؤمن فيها راية الإيمان، وينصر دين الرحمن، والله - ﷻ - ينصر من نصر الدين ويُعز من أعز سبيل المؤمنين، وهذه أمثلة من هذه المواقف الإيمانية الشريفة التي يظهر بها شرف الإيمان، ويرتفع بها منار الإسلام.

(١) «التدابير الواقية من الزنا» د. فضل إلهي، نقلًا عن «العفة ومنهج الاستعفاف» ص[١٠٠].
(٢) تقدم تخريجه.

١- موقف يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من امرأة العزيز ونساء المدينة:

كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فتى فتيًا وشابًا بارع الفتوة والجمال، وكان مملوكًا عند امرأة من أهل التبرج والسفور، وتزينت له المرأة وكانت ذات منصب وجمال، وغلقت الأبواب وقالت: هيت لك، فقال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يُوسُفَ:٢٣]، فأبى يوسف أن يميل مع الهوى فإن من اتبع الهوى هوى به، ومن استعمل التقوى تَقَوَّى بها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد ذكر الله – سبحانه وتعالى – عن يوسف الصديق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العفاف أعظم ما يكون، فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره، فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان شابًا والشباب مركب الشهوة، وكان عَزَبًا ليس عنده ما يعوضه، وكان غريبًا عن أهله ووطنه، والمقيم بين أهله وأصحابه يستحي منهم أن يعلموا فيسقط من عيونهم، فإذا تغرب زال هذا المانع، وكان في صورة المملوك، والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر، وكانت المرأة ذات منصب وجمال، والداعي مع ذلك أقوى من داعي من ليس كذلك، وكانت هي المطالبة فيزول بذلك كُلفة تعرض الرجل، وطلبه، وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمراودة التي يزول معها ظنُّ الامتحان والاختبار، لتعلم عفافه من فجوره، وكانت في محل سلطانها وبيتها، بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذي لا تناله العيون، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب، لتأمن هجوم الداخل على بغتة وأتته بالرغبة والرهبة، ومع هذا كله فعفّ لله ولم يطعها، وقدم حق الله وحق سيدها على ذلك كله، وهذا أمر لو ابتلي به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله، فإن قيل: فقد همَّ بها، قيل عنه جوابان: أحدهما: أنه لم يهم بها بل لولا أن رأى برهان ربه لهم هذا قول بعضهم في تقدير الآية.

والثاني وهو الصواب: أن همه كان همَّ خطرات فتركه لله فأثابه الله عليه، وهمها كان هم إصرارٍ بذلت معه جهدها فلم تصل إليه فلم يستوِ الهمان(١).

ولم يقتصر الأمر على موقف عابر، ولحظات انتصر فيها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على نفسه، ورفع راية الإيمان بل استمر التحريش، والتحضيض، والترغيب، والترهيب بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس من المرأة وحدها، بل منها ومن نساء المدينة، فلما بلغ نساء المدينة أن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًا أرادت المرأة أن تري النساء جمال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى يلتمسن لها العذر في شدة محبتها وبذلها نفسها له ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يُوسُفَ:٣١]، فلما رأت امرأة العزيز مدى انبهار النساء بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ صرحت لهن، واعترفت بين أيديهن و ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يُوسُفَ:٣٢].

فاستمر الكيد والمكر بيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من المرأة ومن نساء المدينة، وهو يعتصم بالإيمان، ويلجأ إلى الرحمن ويقول: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يُوسُفَ:٣٣]، وفي ذلك أدب رفيع للمؤمن عند كثرة الفتن، لا يحسن الظن بنفسه ولكنه يسيء الظن بنفسه، ويعترف بضعفه، ويلجأ إلى ربه عَزَّوَجَلَّ أن يصرف عنه الفتن ما ظهر منها وما بطن، إنه ييأس من حوله وقوته ويلجأ إلى الله – عَزَّوَجَلَّ – ويلوذ إليه ويعوذ به، فالمؤمن لا ينكس راية الإيمان بحجة أن الفتن جارفة، والشهوات عارمة، بل عليه أن يرفع راية الإيمان، ويستعين بالرحمن.

اختار يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ السجن لبدنه على سجن الهوى والشهوة لقلبه.

---

(١) «روضة المحبين» (٣١٨، ٣١٩).

وقد قال بعضهم: المحبوس من حبس عن ربه، والمأسور من أسره هواه، وهذا النوع من الصبر وهو الصبر الاختياري أفضل ولا شك من الصبر الاضطراري، فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يختار حياة السجون مع أن السجون قبور الأحياء، وأن يكون معافًا في دينه مُحافظًا على يقينه، على حياة القصور مع الاختلاط بأهل التبرج والسفور والفجور، ومن عرف الإيمان ووجد محبة الرحمن - عَزَّوَجَلَّ - فإنما يختار أجواء الإيمان والبعد عن الفتن التي توقع في أسر الهوى والشيطان على أرغد عيش مع التعرض لمعصية الرحمن.

وقد قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: ما يفعل بي أعدائي أنا جنتي معي، بُستاني في صدري، إنَّ سجني خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وتعذيبي جهاد في سبيل الله.

ولما سُجن في قلعة دمشق نظر من خلف الباب وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحَدِيد: ١٣]، وكان يقول: لو أملك ملء القلعة ذهبًا ما استطعت أن أكافئهم على ما قدموه لي من الخير.

فالمؤمن قد يفتح عليه في السجن - نسأل الله العافية - من الأحوال الإيمانية والمعاني الشريفة، والتوفيق إلى الطاعة والعبادة، ما يجعل سجنه روضة من رياض الجنة، فأين ذلك من الحياة في أجواء الإباحية والرذيلة والمعصية؟!

والسعادة سعادة القلوب، والشقاء شقاء القلوب، والقلوب لا تسعد إلا بالله - عَزَّوَجَلَّ - وذكره وطاعته كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرَّعْد: ٢٨].

وانظر كذلك كيف ارتفع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يُوسُف: ٢٣]، وبقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يُوسُف: ٣٣]، فخرج يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من السجن إلى خزائن الأرض، وصار يضرب به المثل في العفة والاستعفاف، وحكى الله عَزَّوَجَلَّ قصته بطولها في كتابه تربية للمؤمنين على الطهر والعفة،

وتعظيم حرمات الله ﷻ، وإيثار تقواه على هوى النفوس، وشهوات الأبدان، وابتدأ القصة بقوله ﷻ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف:٣].

قال ابن القيم رحمه الله: فتأمَّل كيف جزاه الله - سبحانه وتعالى - على ضيق السجن أن مكنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء، وأذل له العزيز وامرأته، وأقرت المرأة والنسوة ببراءته، وهذه سنته تعالى في عباده قديمًا وحديثًا إلى يوم القيامة، ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيل التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس(١) سخر الله له الريح يسير على متنها حيث أراد، ولما ترك المهاجرون ديارهم لله وأوطانهم التي هي أحب شيء إليهم أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا وملَّكهم شرق الأرض وغربها(٢).

٢- موقف مرثد بن أبي مرثد الصحابي رضي الله عنه:

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وكان رجلًا يحمل الأسارى من مكة يأتي بهم المدينة قال: وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها: عَنَاق، وكانت صديقةً له في الجاهلية، وإنه واعد رجلًا من أسارى مكة يحمله قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عناق فأبصرت سوادًا تحت ظل الحائط، فلما انتهت إليَّ عرفتني فقالت: مرثد، فقلت: مرثد، فقالت: مرحبًا وأهلًا هلمّ فَبِتْ عندنا الليلة، قال: فقلت: يا عناق، حرم الله الزنا، فقالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فتبعني ثمانية ودخلت الحديقة فانتهيت إلى غار أو كهف، فدخلت فيه، فجاءوا حتى قاموا على رأسي، فبالوا فظل بولهم على رأسي فأعماهم الله عني، ثم رجعوا، فرجعت إلى صاحبي فحملته، وكان رجلًا ثقيلًا، حتى أتيت به المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! أَنْكح عَناقًا؟ مرتين، فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرُدّ عَلَي شيئًا، حتى نزلت:

---

(١) استبعد بعض المفسرين عن سليمان عليه السلام أنه شغل عن صلاة العصر، ورجح أنه شغل عن أذكار المساء، وهو اللائق بالأنبياء، والله أعلم.

(٢) «روضة المحبين» [٤٤٥].

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ [النور: ٣]، فقال رسول الله ﷺ: «**يا مرثد! الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها**»(١).

٣- موقف عثمان بن طلحة:

تروي أم سلمة رضي الله عنها قصة هجرتها فتقول: ففرقوا بيني وبين زوجي، إذ واصل هو سيره إلى المدينة، وبيني وبين ولدي، إذ أخذه رهط زوجي، فكنت أخرج كل غداةٍ إلى الأبطح فأجلس أبكي، حتى مرَّ بي رجلٌ من بني عمي أحد بني المغيرة فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة! فرقتم بينها وبين زوجها، وبين ولدها، قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، قال: ورد بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني، فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله، فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد؟ قلت: لا والله إلا الله وبُنيَّ هذا، قال: والله مالك من مترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلًا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى شجرة أخرى، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري، فقدمه لرحله، ثم استأخر عني وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى وأخذ بخطامه فقاده، حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة نازلًا بها - فادخليها على بركة الله ثم انصرف راجعًا إلى مكة، وهو يومئذٍ على الشرك، وما أسلم إلا في هدنة الحديبية، والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قط أكرم من عثمان بن طلحة.

---

(١) رواه الترمذي [٣١٧٧] التفسير، والنسائي (٦/ ٦٦-٦٧] النكاح، وأبو داود مختصرًا (٢٠٣٧ عون) النكاح، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وحسنه الألباني.

قال الجزائري حفظه الله: حقًا ما قالته: ما أعلم أهل بيت أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة هذه واحدة، وأخرى في كمال عثمان بن طلحة الذي يضرب الرقم القياسي في الكرم النفسي، إنه يجد امرأة على بعيرها تريد السفر مسافة عشرة أيام في صحراء لا خضراء بها ولا ماء، فيقول وقد سألها عن حالها: والله مالك من مترك، ويقود بعيرها، ويحسن إليها في ركوبها ونزولها، ويُريها من العفة والكرم ما لم تره امرأة مثلها قط.

آه!! أين هؤلاء الرجال الأعفاء الكرماء ذوو النجدة؟! لقد أقفرت منهم الحياة، وأجدبت منهم ساحة الوجود، ولا خير في دنيا يفقد فيها أمثال هؤلاء[(١)].

٤- قصة عبيد بن عمير رحمه الله وامرأة من مكة:

ذكر أبو الفرج ابن الجوزي أن امرأة جميلة كانت بمكة، وكان لها زوج، فنظرت يومًا إلى وجهها في المرآة فقالت لزوجها: أترى أحدًا يرى هذا الوجه ولا يُفتن به؟ قال: نعم، قالت: من؟ قال: عبيد بن عمير، قالت: فائذن لي فيه فلأفتننه، قال: قد أذنت لك، فأتته كالمستفتية، فخلا معها في ناحية في المسجد الحرام، فأسفرت عن وجه مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أَمَةَ الله استتري، فقالت: إني قد فتنت بك، قال: إني سائلك عن شيء، فإن أنت صدقتيني نظرت في أمرك، قال: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك، قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاكِ ليقبضِ روحك أكان يسرك أن أقضي لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو دخلت قبرك، وأجلست للمسألة أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو أن الناس أعطوا كتبهم، ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو أردت الممر على الصراط، ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين، أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو جيء بالميزان، وجيء بك، فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال:

---

(١) «هذا الحبيب يا محب» (١٥١-١٥٢) ط. مكتبة لينة.

صدقت، قال: اتقِ الله، فقد أنعم عليك وأحسن إليك، قال: فرجعت إلى زوجها، فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطالٌ ونحن بطالون، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة، فكان زوجها يقول: مالي ولعبيد بن عمير أفسد علي امرأتي، كانت في كل ليلة عروسًا فصيرها راهبة(١).

٥- الربيع بن خثيم وامرأة على باب المسجد:

روي أن جماعة من الشباب أرادوا أن يختبروا الربيع فأرصدوا له امرأة جميلة على باب المسجد - وكان ذلك وهو شاب - فلما خرج من المسجد أسفرت عن وجه كأنه دارة قمر، متظاهرة بأنها ستسأله، وأشد ما كانت دهشتها إذ رأته يبكي حين رأى وجهها، فقالت له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لهذا الجمال، يسلك به سبيل الضلال، فيرى في جهنم هذا الوجه وهو جمجمة متفحمة.

ولقد شوهدت تلك المرأة وهي من ملازمات الصلاة قلبها معلق بالمساجد(٢).

وعن غسان بن المفضل الغلابي قال: سمعت من يذكر أن الربيع بن خثيم كان بالأهواز ومعه صاحب له فنظرت إليه امرأة فتعرضت له فدعته إلى نفسها فبكى الشيخ، فقال له صاحبه: ما يبكيك؟ قال: إنها لم تطمع في شيخين إلا رأت شيوخًا مثلنا(٣).

٦- قصة السري بن دينار وامرأة من مصر:

قال محمد بن إسحاق: نزل السري بن دينار في درب بمصر، وكانت فيه امرأة جميلة فتنت الناس بجمالها، فعلمت به المرأة فقالت: لأفتننه، فلما دخلت من باب الدار تكشفت وأظهرت نفسها، فقال: مالك؟ فقالت: هل لك في فراش وطيّ وعيش رخي؟ فأقبل عليها وهو يقول:

---

(١) «روضة المحبين» [٣٤٠].

(٢) «أبطال ومواقف» بتصرف لأحمد فرح عقيلان (١٧٦-١٧٧).

(٣) «حلية الأولياء» (٢/ ١١٦).

وكم من معاصٍ نَالَ منهن لذةً ومَات فَخلاّها وذَاقَ الدَّوَاهِيا
تَصرمَ لذات المعاصي وتنقضي وتبقى تِبعات المعاصي كما هِيا
فيا سوءتا والله راءٍ وسامع لعبدٍ بعينِ الله يغشى المعاصيا(١)

٧- قصة فتى من أهل الكوفة وامرأة من النخع:

عن إبراهيم النخعي قال: كان بالكوفة فتى جميل الوجه شديد التعبد والاجتهاد، فنزل في جوار قوم من النخع، فنظر إلى جارية منهم جميلةً فهويها وهام بها عقله، ونزل بالجارية ما نزل بالفتى.. فأرسل يخطبها من أبيها، فأخبره أبوها أنها مسماةٌ لابن عم لها، فلما اشتد عليهما ما يقاسيانه من ألم الهوى أرسلت إليه الجارية: قد بلغني شدة محبتك لي، وقد اشتد بلائي بك.. فإن شئت زرتك، وإن شئت سهلت لَكَ أن تأتيني إلى بيتي».. فقال للرسول: ولا واحدة من هاتين الخلتين ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٥]، أخاف نارًا لا يخبو سعيرها، ولا يخمد لهيبها، فلما أبلغها الرسول قالت: وأراه مع هذا يخاف الله!! والله ما أحدٌ أحق بهذا من أحدٍ، وإن العباد فيه لمشتركون، ثم انخلعت من الدنيا، وألقت علائقها خلف ظهرها، وجعلت تتعبد(٢).

٨- قصة فتى من عباد البصرة:

قال مخرمة بن عثمان: نُبئت أن فتى من العباد هَوى جاريةً من أهل البصرة، فبعث إليها يخطبها فامتنعت، وقالت: إن أردت غير ذلك فعلت، فأرسل إليها: سبحان الله! أدعوك إلى ما لا إثم فيه وتدعينني إلى ما لا يصلح؟ فقالت: قد أخبرتك بالذي عندي، فإن شئت فتقدم، وإن شئت فتأخر، فأنشأ يقول:

وَأَسْألُها الحَلالَ وَتَدْعُ قلْبِي إلى مَا لاَ أُرِيدُ مِنَ الحَرَامِ
كَداعي آل فِرعَون إلَيهِ وَهُمْ يَدْعُونَهُ نَحو الأثَامِ
فَظَلَّ منَعَّمًا في الخُلد يَسْعى وَظَلُّوا في الجَحيم وَفي السِّقامِ

---

(١) «روضة المحبين» [٣٣٩].

(٢) «بانتظار حورية من الجنة» نقلًا عن «العفة ومنهج الاستعفاف» [١١٢].

فَلَمَّا علمت أنه امتنع من الفاحشة أرسلت إليه، أنا بين يديك على الذي تحب، فأرسل إليها لا حاجة لنا فيمن دعوناه إلى الطاعة ودعانا إلى المعصية ثم أنشد:

لاَ خَيْر فيمَن لاَ يُرَاقِبُ رَبَّه عِنْدَ الهَوىَ وَيخَافُهُ إِيمَانَا

حجب التُّقى سُبَل الهَوى فَأخُو التُّقى يَخْشَى إِذَا وَافى المَعادَ هَوَانَا

٩- قصة عطاء بن يسار والمرأة البدوية:

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: خرج عطاء بن يسار وسليمان بن يسار حاجين من المدينة، ومعهما أصحاب لهم، حتى إذا كانوا بالأبواء نزلوا منزلًا، فانطلق سليمان وأصحابه لبعض حاجتهم، وبقي عطاء بن يسار قائمًا في المنزل يصلي.

قال: فدخلت عليه امرأة من الأعراب جميلة، فلما رآها عطاء ظن أن لها حاجة، فأوجز في صلاته ثم قال: ألك حاجة؟ قالت: نعم، قال: ما هي؟ قالت: قُم فأصب مِني فإني قد وَدَقْت[(١)] ولا بعل لي: فقال: إليك عني لا تحرقيني ونفسك بالنار.

ونظر إلى امرأة جميلة، فجعلت تراوده عن نفسها، ويأبى إلا ما يريد، قال: فجعل عطاء يبكي ويقول: ويحك! إليكِ عني، قال: اشتد بكاؤه، فلما نظرت المرأة إليه وما داخله من البكاء والجزع بكت المرأة لبكائه، قال: فجعل يبكي، والمرأة بين يديه تبكي، فبينما هو كذلك إذ جاء سليمان من حاجته، فلما نظر إلى عطاء يبكي والمرأة بين يديه تبكي في ناحية الدرس بكى لبكائهما، لا يدري ما أبكاهما وجعل أصحابهما يأتون رجلًا رجلًا كلما أتى رجلًا فرآهم يبكون جلس يبكي لبكائهم، لا يسألهم عن أمرهم، حتى كثر البكاء، وعلا الصوت فلما رأت الأعرابية ذلك قامت فخرجت.

قال: فقام القوم فدخلوا، فلبث سليمان بعد ذلك وهو لا يسأل أخاه عن قصة المرأة إجلالًا له وهيبةً، قال: وكان أسنّ منه.

قال: ثم إنهما قدما مصر لبعض حاجتهما، فلبثا بها ما شاء الله، فبينما عطاء ذات ليلة نائم إذا استيقظ وهو يبكي، فقال سليمان: ما يبكيك يا أخي؟ قال: فاشتد بكاؤه، قال:

---

(١) قولها: «ودقت» أي: أردت الفحل.

ما يبكيك يا أخي؟ قال: فاشتد بكاؤه، قال: ما يبكيك يا أخي؟ قال: رؤيا رأيتها الليلة، قال: وما هي؟ قال: لا تخبر بها أحدًا ما دمت حيًا: رأيت يوسف النبي ﷺ في النوم، فجئت أنظر إليه فيمن ينظر إليه، فلما رأيت حُسنه بكيت، فنظر في الناس فقال: ما يبكيك أيها الرجل؟ فقلت: بأبي أنت وأمي يا نبي الله ذكرتك وامرأة العزيز، وما ابتليت به من أمرها وما لقيت من السجن، وفرقة يعقوب، فبكيت من ذلك، وجعلت أتعجب منه، قال: فهلا تعجبت من صاحب المرأة البدوية بالأبواء؟ فعرفت الذي أراد فبكيت، واستيقظت باكيًا، قال سليمان: أي أخي، ما كان من حال تلك المرأة؟ فقص عليه عطاء القصة، فما أخبر بها سليمان أحدًا حتى مات عطاء، فحدث بها بعده امرأة من أهله، قال: وما شاع هذا الحديث بالمدينة إلا بعد موت سليمان بن يسار رحمهما الله(١).

١٠- قصة أحد الثلاثة الذين سُدت عليهم فوهة الغار

والشاهد في القصة هذا الموقف الإيماني في العفة والاستعفاف من الرجل الثاني الذي قال: «اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي فأردتها عن نفسها فامتنعت مني، حتى ألمت بها سِنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أُحلُّ لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها»(٢)، وقد سقنا الحديث بطوله في أدلة السنة على فضل العفة والاستعفاف، وذكرنا هنا الجزء الخاص بالعفة كمثال لموقف من مواقف الإيمان في العفة والاستعفاف، والله يوفقنا وإخواننا لما يحب ويرضى، ويشبه هذا الموقف موقف الكفل، وقد تقدم أيضًا فلا نُطِيل بذكره.

---

(١) «صفة الصفوة» (٢/ ٨٢-٨٤).

(٢) تقدم تخريجه.

١١- قصة الترزي الذي كان يعمل في معسكر الإنجليز:

قال الأستاذ حسن البنا رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا الأخ عبد العزيز غلام النبي الهندي الذي كان يعمل «ترزيًّا» في المعسكر الإنجليزي، تدعوه زوجة أحد كبار الضباط لبعض الأعمال الخارجية بمهنته، لتنفرد به في المنزل، وتغريه بكل أنواع المغريات، فيعظها، وينصح لها، ثم يخوفها ويزجرها، فتهدد بعكس القضية تارة، وبتصويب المسدس إلى صدره تارة أخرى، وهو مع ذلك لا يتزحزح عن موقفه قائلًا: إني أخاف الله رب العالمين، وكم كان جميلًا ومضحكًا في وقت واحد أن توهمه في إصرار أنها قد قررت قتله، وستعتذر عن ذلك بأنه هاجمها في منزلها وهمَّ بها، تصوب المسدس إليه، فيغمض عينيه ويصرخ في يقين: «لا إله إلا الله... محمد رسول الله» فتفاجئها الصيحة، ويسقط المسدس على الأرض، ويسقط في يدها، فلا ترى إلا أن تدفعه بكلتا يديها إلى الخارج، حيث يظل يعدو إلى دار الإخوان المسلمين(١).

١٢- قصة يحكيها الأستاذ محمود النجيري في كتابه «بانتظار حورية من الجنة»:

قال: حدثني بعض إخواني قال: نشأنا سويًا منذ نعومة أظفارنا، فقد جمع عائلتينا علائق الود والصفاء، وكنت أنا أرتع معها في براءة الطفولة، وأشاركها لعبها ولهوها الغض، ودارت بنا الأيام على تلك الحال.. حتى انسلخنا من عهد الطفولة الرخي، وبدأنا عهدًا جديدًا في ألوانه وإحساساته ومشاهده، بدأت هي تظهر عليها ملامح الأنوثة الفياضة، وأنا أدخل في طور الشباب، وطبيعة الحال فقد حجبها أهلها، ولم يعد يرى أحدنا الآخر إلا لمامًا.

وافتقدتها كرفيقة اعتدت صحبتها دومًا، وظننت أني لا آبه لفراقها، إلا أنني لمست في نفسي ميلًا جارفًا نحوها، وحبًا عارمًا لشخصها، كيف وقد درجنا سويًا، ونمت عواطفنا مع نماء أجسادنا! كنت أعلم يقينًا أنها تحبني أيضًا.. لكنني عففت، وحفظت عقلي فسكتُّ.. وتوجهت إلى ربي بكل كياني ونفسي.. أرعى حرمه.. وألتزم حدوده،

(١) «العفة ومنهج الاستعفاف» (١١٢-١١٣).

وأنتهج شرعه، وعزمت في نفسي أن أتزوجها حينما يتيسر الأمر.

والحق أنني جاهدت نفسي جهادًا طويلًا حتى أقمع ذلك الشوق الجارف إليها، وأُلطف من ذلك الحنو العظيم نحوها، وربط الله على قلبي وألهمني الصبر.

وعِفَّ في الحب ولا تُبْدِه ... واصْبِرْ وكاتمْ غايةَ الجَهْدِ
فإن تَمُت محتسبًا صابرًا ... تَفُزْ غدًا في جنَّةِ الخُلْدِ

وذات يوم وبينما أنا في بيتي وليس به غيري... إذ دخلت عليّ هي بجمالها وبهائها، بجلالها وعنفوانها، واتجهت صوبي باسطة كفها، وتخطف بصري جمالها الأخّاذ، وسحرها الفتان، وهممت بمصافحتها والإقبال عليها.. لكنني تذكرت أن هذا ليس من حقي، فغضضت من طرفي.. وجمّدت يدي، وأدرت لها عطفي، وقلت: ليس أحد بالمنزل.. أو ما تعلمين ذلك؟ فأجابت في صوت متهدج متقطع: بلى، أعلم جيدًا.. ولذا أتيت.. إنك لا تدري ما أصابني بعدك.. إنني إنني..، وانقطع كلامها ببوادر بكاء ووقفت جامدًا لا أدري ما أقول وما أفعل.. وظللت لحظة أدافع نفسي عن أشياء كثيرة أرادتها.. لقد كانت هذه الخلوة وضعًا خاطِئًا، ثم إن الشيطان قد بدأ ينسج خيوطه، ويوري ناره، يجب ألا أهن منذ البداية، وأن أقطع دابر الغواية، فترفقت وقلت لها: لا أحد بالمنزل هل تفهمين؟ لا أحد بالمنزل.. كنت أعلم أن كلامي سيكون وقعه شديدًا عليها، ولكن لا مخرج إلا بذاك، وصَحَّ ظني فقد استدارت محنقة وجرت.

فحمدت الله وتمثلت قول الشاعر:

وَا سَوْأَتَا لِفتىً لَهُ أَدبٌ ... يُضحي هَواه قاهِرًا أدَبهُ
يَأتي الدَّنية وهو يعرفُها ... فيُشين عِرضًا صائنًا أربَه
فإذا ارْعَوَى عادت بصيرتُه ... فبكى على الحين الذي سُلِبَه[1]

(١) نقلًا عن كتاب «العفة ومنهج الاستعفاف» (١١٣-١١٤).

١٣- سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في طريقه إلى أمريكا:

بعد أن قرر سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختيار الالتزام بالإسلام والدعوة إليه في أمريكا، وُجهت له فتنة من إحدى الأمريكيات على ظهر الباخرة فأعانه الله على الاستعلاء عليها، وحولها يقول: وأردت أن أكون الرجل الثاني - المسلم الملتزم - وأراد الله أن يمتحنني: هل أنا صادق فيما اتجهت إليه أم هو مجرد خاطرة؟

فما أن دخلت الغرفة، حتى كان الباب يقرع، وفتحت فإذا أنا بفتاة هيفاء جميلة شبه عارية، يبدو من مفاتن جسمها كل ما يُغري، وبدأتني بالإنجليزية: هل يسمح لي سيدي بأن أكون ضيفة عليه؟ فاعتذرت بأن الغرفة معدة لسرير واحد، وكذا السرير لشخص واحد، فقالت: وكثير ما يتسع السرير الواحد لشخصين!! واضطررت أمام وقاحتها، ومحاولة الدخول عنوة لأن أدفع الباب في وجهها لتصبح خارج الغرفة، وسمعت ارتطامها بالأرض الخشبية في الممر، فقد كانت مخمورة[(١)].

فهذا موقف إيماني من مواقف سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ينُم على صدق الإيمان ومحبة الرحمن، مواقفه كثيرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والعجب ممن يخرجه من ملة الإسلام، ويخلده بزعمه في دركات النيران، ونحن نُشهد الله - وَجَلَّ - على حبه في الله، والله تعالى يتولانا وإياه برحمته ويسبغ علينا وعليه سوابغ نعمته، ويدخلنا وإياه جنة عالية قطوفها دانية، ويغفر لمن وقع فيه وكفّره بملء فيه، مع أن أقواله ومواقفه تفوح منها روائح الإيمان الزكية وتشهد له بحسن السيرة والطوية، وهو على كل حال نرجو أن يكون قد وُفِّقَ لحسن الخاتمة حيث انتهت حياته على خشبة المشنقة، وهو ثابت على الإيمان، يحمل راية الرحمن.

ومن وقع فيه لا يدري بماذا يختم له، نسأل الله حسن الخاتمة لنا وله وللمسلمين.

وإن وقع رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض التأويل فالعلماء يعذرون الأئمة الكبار الذين وقعوا في بعض التأويل غير قاصدين الخطأ ومخالفة أهل السنة والجماعة، ويقولون: لعل لهم

---

(١) أمريكا من الداخل [٢٧] نقلًا عن «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» [١٩٥].

مشايخ أخذوا عنهم ذلك، ولم تتشرب قلوبهم بالبدع ولم يكونوا دُعاة إليها أمثال الإمام النووي والقرطبي وابن حجر العسقلاني رحم الله الجميع، فأولى ثم أولى أن يعذروا أمثال الأستاذ سيد قطب الذي ما تهيأ له أن يتضلع من العلوم الشريفة، لتوجهاته الإسلامية في أواخر عمره، وفي أزمنة نكست فيها أعلام العلم، وارتفعت رايات الجهل والبدع، وليست العبرة بمن سبق إنما العبرة بمن صدق، ونحن نحسب أنه صدق مع الله ﷻ، وثبت على دينه، ورفع راية الإسلام، في وقت نكست فيه رايات الإيمان، وأعلى منار الإسلام وأضاءه في وقت تخلى فيه أكثر الناس عن دينهم ونصرة شريعة ربهم، فرحمه الله رحمة واسعة وغفر لنا وله ما زلت به القدم وأخطأ به القلم.

obeikandl.com